ظاهرة التدين وانطولوجيا الأخلاق

د.عرفات كرم ستوني
نائب رئيس منتدى الفكر الإسلامي
عميد كلية القانون بجامعة سوران

arafat.stuni1972@gmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

لن يكون هذا البحث بحثا تقليديا محضا يجمع بين لابتيه نصوصا قرآنية، وأحاديث نبوية، وآثارا سلفية حول محاسن الأخلاق ومكارمها وصالحها وفضلها وأهميتها، فهذا الأمر قد عالجه وتناوله الأعلام السابقون بصورة مستفيضة، ومن جملة هؤلاء الخرائطي[1] وابن أبي الدنيا[2] وابن حزم الأندلسي[3] وغيرهم خلق كثير،

[1] الخرائطي: مكارم الأخلاق.

ولكنه سيعالج مشكلة عويصة تتعلق بإشكالية العلاقة بين التدين وحسن الخلق، حيث نلاحظ باستمرار ظاهرة غريبة عجيبة في المجتمع المسلم، وهي في الوقت نفسه ظاهرة خطيرة تهدد بنيان المجتمعات، وتشوه صورة الإسلام، وقد شوهت بالفعل، فبدل أن يتهم المسلم في سلوكياته وأخلاقه وتصرفاته السيئة، اتهم الدين نفسه، والدين – عند قراءة نصوصه قرآنا وسنة- بريء من هذا كله براءة الذئب من دم يوسف (عليه السلام)، فالمشكلة ليست في الدين، بل في المنتسبين إليه، حيث لم يفقهوا حقيقة الإسلام، تلك الحقيقة التي جمعت بين التدين وحسن الخلق، فكلاهما شرطان أساسيان رئيسان ليكون الإنسان مسلما صحيحا وحقيقيا، وهذا الذي ندندن حوله حقيقة جلية تعضدها نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية، ونجد ذلك في التطبيق العملي لحياة الرسول(صلى الله عليه وسلم)، واستقر السلف الصالح على هذا الأساس المتين، والركن الركين، فهذه المشكلة التي تعاني منها المجتمعات المسلمة، ترتد إلى الفهم السقيم لهذا الدين، وإلى الفقه العقيم لحياة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وسيرة الصحابة والتابعين، فليس ما جئت به بدعا من الرأي، بل كل ما في الأمر أن هذه السطور مجرد تذكير وتحليل من أجل الأوبة إلى الحياة الطبيعية التي كان عليها الأوائل، فنحن نعيش حياة عرجاء، والمجتمع متخبط، إما متدين سيء الخلق، وإما فاجر حسن الخلق، وكلا الأمرين مرفوضان في فلسفة الإسلام، فالإسلام يريد من المسلم أن يكون متدينا وحسن الخلق، فهما كجناحي الطير، فهل يستطيع الطير أن يحلق في السماء بجناح واحد؟ بل مجرد ألم أو جرح في جناح الطير يعرض الطير للخطر أو يكون طعاما للسبع.

ولقد تحدث علماء الإسلام قديما وحديثا عن هذه الإشكالية، ففي العصر الحديث عانى الشيخ محمد عبده(ت 1905م) من المجتمع المصري، حيث لما زار أوربا، وقارن بينها وبين البلاد المسلمة وخاصة مصر، قال كلمته المشهورة:" وجدت في أوروبا مسلمين بلا إسلام، بينما وجدت في بلادي إسلاما بلا مسلمين"[4]. هذه حقيقة لا يعرفها إلا من زار أوربا، فأكثر عمليات السرقة والغش والخداع والرشوة وتجاوز القانون تحدث في بلاد المسلمين، بينما لا تجد ذلك في أوربا إلا القليل، ومع ذلك فالقانون يطارد هذه الحالات الغريبة، ليقضي عليها، إذن ليس الخلل في الدين، فالدين ينهى عن تلك السلوكيات الطائشة والأخلاقيات المقيتة، ولكن الخلل في المسلمين الذي فهموا هذا الدين فهما سقيما.

ينبغي للمسلم أن يتقن فن التعامل مع جهتين في حياته، أولاها: فن التعامل مع الخالق، وثانيهما: فن التعامل مع الخلق، غالبية المسلمين لا يتقنون فن التعامل مع الخلق، ومن لم يحسن التعامل مع الخلق أساء التعامل مع الخالق، لأن الخالق فرض على عباده حسن التعامل مع الخلق، فالالتزام بجانب واحد دون الآخر خلل في فهم

---

[2] ابن أبي الدنيا: مكارم الأخلاق.

[3] ابن حزم الأندلسي: الأخلاق والسير.

[4] ولقد رأيت بأم عيني ما تحدث عنه الشيخ محمد عبده في زيارتي لأوربا هذه السنة (2013)، فليس المخبر كالمعاين، وقد دفع ببعضهم من الذين أسلموا إلى القول: الحمد الله أني أسلمت قبل أن أرى المسلمين".

حقيقة الدين، لأن حسن التعامل مع الجانبين كليهما وصية الله ورسوله (صلى الله عليه وسلم)، ويتصور البعض أن من أحسن التعامل مع ربه، فلا ضير لو أساء التعامل مع الخلق، وهذا ليس صحيحا، بل لا بد أن يكون التعامل مع الجانبين سيين، مع الاختلاف قطعا بين التعاملين، فالأول تعامل تعبدي خضوعي من عبد لألـه معبود، والثاني سلوكي خلقي من مؤمن مع أخيه المؤمن على اختلاف المشارب والمذاهب والأديان.

من المؤلم حقا أن تعاني مجتمعاتنا من هذه الظاهرة الخطيرة، فقل من تلفي وقد حقق ذينك الأمرين، أي جمع بين التدين الصحيح والخلق الحسن، ولقد كان النبي وأصحابه والسلف الصالح أشد الناس تقى وخوفا ورهبة من ربهم، وفي الوقت نفسه أفضل الناس خلقا وسلوكا وأدبا، هذه هي حقيقة الإسلام، بينا مجتمعاتنا على العكس حيث تكتظ المساجد بالمصلين، وتزدحم الصفوف الأول بالمتقين، وترتج المحاريب والمآذان بالقراء والمؤذنين، وتمتلأ القاعات بالملحنين والمحتفلين بالمناسبات الدينية، وتسيل الدماء سيلا بذبح القرابين، بلْه الكعبة المليئة دوما بالحجاج والمعتمرين، فلو قلت لهم لم هذا كله؟ لكان جوابه، لله الواحد القهار، لنيل الجنة والنجاة من النار، وعندما يخرج من مسجده، أويعود من حجه أو عمرته، أو ينتهي من ذبيحته، نراه – وقليل ما هم – إنسانا آخر مختلفا تمام الاختلاف عن سابقه، حيث تتكشف حقيقته مع الأسف الأسيف، فإذا هو شخص سيء الخلق، يشكو منه كل أحد يلتقي به، وما أكثر الأمثلة على ذلك، والقاريء الحصيف يتفق معي بلا ريب.

ولعل من أعظم الأمثلة على ما نحن بصدده، ظاهرة انتشار الكذب بين كثير من الناس، حتى وصل إلى درجة لا يمكن تصورها، والغريب أن هذه الظاهرة كانت ثاوية في عهد العلماء الأجلاء من السلف الصالح، ولقد ذكر أبو عبد الرحمن عن محمد بن يحيى بن سعيد القطان أنه قال: سمعت أبي يقول:" ما رأيت الكذب في أحد أكثر منه فيمن ينتسب إلى الخير"[5]، ولقد تجاوز ذلك إلى الكذب على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بنية سليمة وصادقة حسب زعمهم، عن عبد الله بن المبارك قال : قلت لسفيان الثوري : إن عباد بن كثير من تعرف حاله (يعني في الصلاح والتقوى) وإذا حدث جاء بأمر عظيم، فترى أن أقول للناس: لا تأخذوا عنه؟ قال سفيان: بلى، قال عبد الله: فكنت إذا كنت في مجلس ذكر فيه عباد أثنيت عليه في دينه، وأقول : لا تأخذوا عنه"[6]. فهنا جمع عباد بن كثير -وهو التقي العابد والمتدين المعروف – بين التدين وخلق سيء، وهو الكذب في الحديث، حيث لا يتورع عن ذلك البتة، بل كاد الكذب وقتئذ يكون بضاعة رابحة، وخاصة في بعض المدن، منها بغداد، يقول يحيى بن معين:" ما رأيت الكذب أنفق منه ببغداد"[7]. ولعل بعض الناس تطبع على هذه الأخلاقيات المذمومة، بحيث لا يستطيع التخلي عن ذلك، بل ربما يجد

---

[5] العقيلي: الضعفاء الكبير(بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1418 هـ ، 1997 م) 14/4.

[6] الألباني: سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة(الرياض، دار المعارف، ط1، 1412هـ، 1992م)666/1.

[7] أبو أحمد عبد الله بن عدي الجرجاني: الكامل في ضعفاء الرجال(بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1418 هـ ، 1997 م) 278/1.

لذة في ذلك، يقول نصر بن علي: قلت للأصمعي: ما تحفظ من كلام العرب في الكذب؟ قال: قلت لأعرابي: ما حملك على الكذب؟ قال: لو ذقت حلاوته ما نسيته"[8].
ولعل هذا قد يكون مقبولا في الشعر دون غيره من المجالات، لأن العرب تقول: أحسن الشعر أكذبه، ولكن المشكلة أن الكذب غدا دأبا سيئا وعادة قبيحة عند كثير من الناس، مع أن الكذب من أعظم أمارات النفاق، قال (صلى الله عليه وسلم):" آية المنافق ثلاث:إذا حدث كذب(وزاد الإمام مسلم في صحيحه: وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم) ، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان"[9].

وعليه فإن هذه الأمثلة تؤكد حقيقة ما ذكرنا في كون سوء الخلق قد يجتمع مع التدين، لأنها أمران مختلفان، والأصل أن ذلك مخالف لحقيقة مسلك رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، ولا يعني أن ما ذكرناها من الأمثلة ليست موجودة في عصرنا الحديث، فثمة إحصاءات تؤكد - مع الأسف الأسيف- أن أكثر الناس كذبا في العالم الإسلامي وخاصة في مصر هم حفاظ القرآن ، وإذا كنا نعاني من الحفاظ اليوم، فقديما كانوا يعانون من حفظة الحديث حيث يذكر يحيى بن سعيد القطان عن أبيه قائلا:" لم نر أهل الخير في شئ أكذب منهم في الحديث"[10]، وهذه مصيبة عظيمة، والحقيقة أن المؤمن الحقيقي والمسلم السليم هو الذي يلتزم بأخلاق رسول الله(صلى الله عليه وسلم) ويتبع طريقة عبادته وتدينه، بحيث لا يفصل بينهما البتة.

مالقصود بحسن الخلق؟

ثمة تعاريف عديدة لحسن الخلق، نذكرها أهمها، قال الحسن البصري:" حسن الخلق، بسط الوجه، وبذل الندى، وكف الأذى"[11] وقال عبد الله بن المبارك في تفسير حسن الخلق:" طلاقة الوجه، وبذل المعروف، وكف الأذى"[12].وقيل:" بذل الجميل، وكف القبيح، ومنها: بذل الندى، وكف الأذى، واحتمال الأذى، وقيل: هو التخلي عن الرذائل، والتحلي بالفضائل"[13]. وقال الماوردي:" وحسن الخلق أن يكون سهل العريكة، لين الجانب، طليق الوجه، قليل النفور، طيب الكلمة"[14]، وقال يوسف بن أسباط:" علامة حسن الخلق: عشر خصال: قلة الخلاف، وحسن الإنصاف، وترك طلب العثرات، وتحسين ما يبدو من السيئات، والتماس المعذرة، واحتمال الأذى،

---

[8] المصدر السابق 318/1.

[9] الألباني: صحيح الجامع الصغير(بيروت، المكتب الإسلامي، د.ط.ت) 3/1.

[10] صحيح مسلم، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي (بيروت، دار إحياء التراث العربي، د.ط.ت) 12/1.

[11] الغزالي: إحياء علوم الدين(بيروت، دار االمعرفة، د.ت.ط) 69/4.

[12] النووي: رياض الصالحين، تحق: عبد العزيز رباح، وأحمد يوسف الدقاق(الرياض، دار السلام، د.ط. 1427هـ، 2006م) ص233.

[13] ابن قيم الجوزية: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تحق: عيد الغني محمد علي الفاسي(بيروت، دار الكتب العلمية، ط2، 2009م) 228/2.

[14] الماوردي: أدب الدنيا والدين، تحق: محمد أبو الخير السيد، ومحمد الشرفاوي(بيروت، مؤسسة الرسالة، ط1، 2006م) ص367.

والرجوع بالملامة على النفس، والتفرد بمعرفة عيوب نفسه دون عيوب غيره، وطلاقة الوجه للصغير والكبير، ولطف الكلام لمن دونه ولمن فوقه"[15].

ويقول ابن قيم الجوزية بعد أن نقل تلك التعريفات، ومدار حسن الخلق مع الحق، ومع الخلق على حرفين، ذكرهما عبد القادر الكيلاني، فقال: كن مع الحق بلا خلق، ومع الخلق بلا نفس[16]. والذي يبدو لي أن ما ذكره عبد القادر الكيلاني من أعظم التعريفات لحسن الخلق، فقد جمع في آن واحد بين حسن الخلق مع الحق، وهو طاعته خوفا وطمعا، رهبة ورغبة ومحبة، أي فن التعامل الصحيح مع الحق تبارك وتعالى، وبين حسن الخلق مع الأنام، وهو فن التعامل السليم مع الناس، وحسن التصرف والسلوك في حياته كلها مع الخلق، فلو فصلنا بعض الشيء ما قاله الكيلاني، حيث تحمل هذه الكلمات الوجيزات معاني فكرية وفلسفية عميقة، ففي الجزء الأول يرشدنا إلى عبادة الله وحده، خضوعا وتوكلا وخشوعا وإنابة ودعاء واستعانة وتضرعا وسؤالا، فهو وحده القادر على ذلك كله، وهو المعبود بحق لا معبود سواه، فلا واسطة بين العبد وربه، قال تعالى{ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ}[17]، أما الجزء الثاني من كلام الكيلاني، وهو المتعلق ببحثنا أصالة، فهو واضح جلي، حيث يرشدنا إلى التعامل السلس والسليم والطبيعي مع الناس على اختلاف مشاربهم، حيث يقول: ومع الخلق بلا نفس، أي ينبغي للإنسان أن يتواضع وأن لا يتكبر ولا يتجبر ولا يتبختر، لأن ذلك مرض نفسي، بل لا بد أن يهين ويحتقر نفسه التي تميل إلى هذه الخلال الذميمة والقبيحة، حيث يبغضها الله وروسوله، وقد ذكر ابن القيم وهو يشرح درجات الخلق عند صاحب منازل السائرين[18]، حيث قال: منها أي الأولى:" يكون تحسين الخلق مع الخلق في معاملتهم، وكيفية مصاحبتهم، وبالثانية: تحسين الخلق مع الله في معاملته"[19]. ويقول ابن رجب الحنبلي:" وإذا قرن البر بالتقوى، كما في قوله عز وجل:{ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى }[20]، فقد يكون المراد بالبر معاملة الخلق بالإحسان، وبالتقوى: معاملة الحق بفعل طاعته، واجتناب محرماته"[21]. وهذا جلي في قوله (صلى الله عليه وسلم):" البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في صدرك، وكرهت أن يطلع عليه الناس" [22]، فقد حدد النبي (صلى الله عليه وسلم) تفسير البر بحسن الخلق، وهذا كما يقول ابن رجب إذا اقترن بالتقوى، وفي حديث آخر يبين الجمع الحقيقي بين التدين وحسن الخلق، قال (صلى الله عليه وسلم):" " تدرون ما أكثر ما يدخل النار؟". قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: " الأجوفانِ

---

[15] الغزالي: إحياء علوم الدين 104/4

[16] ابن قيم الجوزية: مدارج السالكين 228/2- 241.

[17] سورة غافر الآية 60.

[18] وهو الهروي.

[19] ابن قيم الجوزية: مدارج السالكين 2/ 235.

[20] سورة المائدة الآية 2.

[21] ابن رجب الحنبلي: جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم (بغداد، مكتبة الشرق، ط3، 1986) ص238.

[22] رواه مسلم في صحيحه 8/6-7 رقم الحديث 2553.

: الفرج والفم، وما أكثر ما يدخل الجنة؟ تقوى الله وحسن الخلق"[23]. فحسن الخلق والبر - شريطة اقترانه بالتقوى - بمعنى واحد، وكلاهما بمعنى حسن المعاملة مع الخلق، قال ابن رجب:" البر يطلق باعتبارين معينين: أحدهما: باعتبار معاملة الخلق بالإحسان إليهم... ويطلق كثيراً على الإحسان إلى الخلق عموماً، وقد صنف ابن المبارك كتاباً سماه كتاب (البر والصلة)، وكذلك في (صحيح البخاري) و(جامع الترمذي) :كتاب (البر والصلة)، ويتضمن هذا الكتاب الإحسان إلى الخلق عموما"[24]، وعند النظر في حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده: أنَه قال: يا رسول الله من أبر ؟ قال: أمك، قال : ثم من؟ قال : ثم أباك، قال : ثم من ؟ قال : ثم الأقرب فالأقرب". يتضح لنا أن الصحابي سأل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن كيفية التعامل مع الأصناف المذكورة، ومن أحق وأولى بحسن التعامل معه، والبر إليه، فقدم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الأم على الأب، ثم ذكر الأقربين.

وعليه، فإن حسن الخلق يمكن تعريفه بصورة دقيقة وموجزة، فهو فن التعامل السليم مع الخلق، لأن جميع ما ذكرنا من تعريفات وأقوال وما نذكرها لاحقا تتعلق بالتعامل والمعاملة مع الناس، ولو عدنا إلى مدارج ابن القيم لألفينا أنه جعل لحسن الخلق أربعة أركان، وهي جميعها، وحتى دعائم سوء الخلق التي جعلها أربعة، كلها تدور حول كيفية التعامل مع الناس، قال ابن القيم:" وحسن الخلق يقوم على أربعة أركان لا يتصور قيام ساقه إلا عليها: الصبر والعفة والشجاعة والعدل، أولا: الصبر: يحمله على الاحتمال وكظم الغيظ وكف الأذى والحلم والأناة والرفق وعدم الطيش والعجلة، ثانيا: العفة: تحمله على اجتناب الرذائل والقبائح من القول والفعل، وتحمله على الحياء، وهو رأس كل خير، وتمنعه من الفحشاء والبخل والكذب والغيبة والنميمة، ثالثا: الشجاعة: تحمله على عزة النفس وإيثار معالي الأخلاق والشيم، وعلى البذل والندى الذي هو شجاعة النفس وقوتها على إخراج المحبوب ومفارقته، وتحمله على كظم الغيظ والحلم، فإنه بقوة نفسه وشجاعتها يمسك عنانها ويكبحها بلجامها عن النزغ والبطش... رابعا: العدل: يحمله على اعتدال أخلاقه وتوسطه فيها بين طرفي الإفراط والتفريط فيحمله على خلق الجود والسخاء الذي هو توسط بين الذل والقحة، وعلى خلق الشجاعة الذي هو توسط بين الجبن والتهور وعلى خلق الحلم الذي هو توسط بين الغضب والمهانة وسقوط النفس"[25]، فجميع هذه الخصال والأفعال والخلال والأعمال تتعلق بالإنسان، وكيفية تعامله مع أخيه الآخر بغض الطرف عن هويته، قال الغزالي:" وجمع بعضهم علامات حسن الخلق، فقال: هو أن يكون كثير الحياء، قليل الأذى، كثير الصلاح، صدوق اللسان، قليل الكلام، كثير العمل، قليل الزلل، قليل الفضول، برا وصولا وقورا صبورا شكورا رضيا حليما

---

[23] محمد ناصر الدين الألباني: صحيح الأدب المفرد للإمام البخاري(د.م. دار الصدّيق، ط1: 1421هـ) ص 125.

[24] ابن رجب: جامع العلوم والحكم ص238.

[25] ابن القيم: مدارج السالكين 2/ 228.

رفيقا عفيفا شفيقا، لا لعانا ولا سبابا ولا نماما ولا مغتابا ولا عجولا ولا حقودا ولا بخيلا ولا حسودا بشاشا هشاشا... فهذا هو حسن الخلق"[26].

وبعد توضيح المقصود بحسن الخلق، لابد أن نذكر بعض النصوص القرآنية والأحاديث النبوية والآثار السلفية حول حسن الخلق، وذلك من أجل أن يكون القاريء على بينة من الأمر، لقد أحسن ابن القيم عندما عد حسن الخلق منزلة من منازل إياك نعبد وإياك نستعين، قال أبو علي الدقاق:" إن الله تعالى خص نبيه(صلى الله عليه وسلم) بما خصه به، ثم لم يثن عليه بشيء من خصاله بمثل ما أثنى عليه بخلقه، فقال عز من قائل{ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ}[27]"[28]. قال جعفر بن محمد : أمر الله نبيه بمكارم الأخلاق وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية أي { خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ}[29]، وقد ذكر : أنه لما نزلت هذه الآية قال رسول الله لجبريل : ما هذا قال : لا أدري حتى أسأل فسأل ثم رجع إليه فقال : إن الله يأمرك أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك"[30].

وخير كتاب يوضح ويعرف حقيقة خلق رسول الله (صلى الله عليه وسلم) هو القرآن الكريم، ولهذا لما سئلت عائشة(رضي الله عنها) عن خلق رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قالت: كان خلقه القرآن"[31]. فما من آية في القرآن الكريم تناولت الأخلاق الحسنة، إلا وتجد تطبيق ذلك في رسول الله(صلى الله عليه وسلم)، ولهذا اختار الله محمدا (صلى الله عليه وسلم) ليكون نبيا ورسولا وقدوة وأسوة حسنة للعالمين، ولو تتبعنا سيرته وحياته الشخصية لوجدنا أمثلة رائعة على ما نحن بصدده، قال تعالى{ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ}[32]. فهذه الآية صريحة في سبب بقاء الصحابة مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لا لكونه نبيا فقط، بل لكونه نبيا وجامعا لخلق حسن، حيث كان لينا هينا مرنا سهلا، فلو كان بخلاف ذلك أي فظا غليظا قاسيا جافا لم يبق أحد من الصحابة مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، ولهذا قال تعالى{ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ}[33].

ولنذكر بعضا من أقواله، ونماذج من أخلاقه(صلى الله عليه وسلم). أولا نبدأ بأحاديثه (صلى الله عليه وسلم) عن حسن الخلق:

1) إن من أحبكم إلي، وأقربكم مني مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا، وإن أبغضكم إلي، وأبعدكم مني مجلسا يوم القيامة، الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون،

---

[26] الغزالي: إحياء علوم الدين 101/4.
[27] سورة القلم الآية 4.
[28] القشيري: الرسالة القشيرية في علم التصوف، تحق: أحمد عناية، ود.محمد الأسكندراني(بيروت، دار الكتاب العربي، د.ط.2005م) ص 229.
[29] سورة الأعراف الآية 199.
[30] ابن القيم: مدارج السالكين 225/2.
[31] الألباني: صحيح الجامع الصغير وزيادته 175/3.
[32] سورة آل عمران الآية 159.
[33] سورة التوبة الآية 128.

قـالوا يـا رسـول الله، قـد علمنـا الثرثـارون والمتشـدقون، فمـا المتفيهقـون؟ قـال المتكبرون"[34].

2) خياركم إسلاما، أحاسنكم أخلاقا إذا فقهوا[35]".

3) " ما من شيء في الميزان أثقل من حسن الخلق"[36].

4) " إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق "[37].

5) " إن الرجل ليدرك بحسن خلقه درجات قائم الليل صائم النهار "[38].

7) قالوا: يا رسول الله ! ما خير ما أُعطِي الإنسان؟ قال: " خلق حسنٌ"[39].

8) :" إن أقربكم مني منزلا يوم القيامة، أحاسنكم أخلاقا في الدنيا"[40].

9) " تبسمك في وجه أخيك لك صدقة، وأمرك بالمعروف، ونهيك عن المنكر صدقة، وإرشادك الرجل في أرض الضلال لك صدقة، وبصرك الرجل الرديء البصر لك صدقة، وإماطتك الحجر والشوكة و العظم عن الطريق لك صدقة، وإفراغك من دلوك في دلو أخيك لك صدقة " [41].

10) :" الكلمة الطيبة صدقة"[42].

11) :" حرم على النار كل هين لين سهل قريب من الناس"[43].

12) :" أتدرون ما المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا دراهم له ولا متاع، فقال: إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وز كاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار "[44].

---

[34] الألباني: سلسلة الأحاديث الصحيحة (الرياض، مكتبة المعارف، د.ط.ت) 290/2. وقد فسر النبي(صلى الله عليه وسلم) الكبر بقوله:" لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر قيل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا، ونعله حسنة قال: إن الله جميل، يحب الجمال، الكبر: بطر الحق و غمط الناس، وفي رواية: قيل: يا رسول الله فما الكبر؟ قال: سفه الحق وغمص الناس " ومعنى بطر الحق أي رفض الحق والاستخفاف به، وعدم قبوله تحقيرا له، و والغمط والغمص بمعنى واحد، أي تحقير الناس والازدراء بهم والطعن فيهم..الألباني: سلسلة الأحاديث الصحيحة 133/1، صحيح الجامع الصغير161/2.

[35] الألباني: سلسلة الأحاديث الصحيحة 463/4

[36] الألباني:صحيح الأدب المفرد ص122.

[37] المرجع السابق ص 122.

[38] الألباني: سلسلة الأحاديث الصحيحة 294/2.

[39] الألباني: صحيح الأدب المفرد ص125.

[40] الألباني: صحيح الجامع الصغير 143/1.

[41] الألباني: سلسلة الأحاديث الصحيحة 71/2.

[42] الألباني: سلسلة الأحاديث الصحيحة 99/3.

[43] الألباني:صحيح الجامع الصغير 299/1.

[44] الألباني: سلسلة الأحاديث الصحيحة 346/2.

فحسن الخلق من أساسيات الدين، وقواعد الإيمان، ولهذا قال ابن القيم:" حسن الخلق: هو الدين كله وهو حقائق الإيمان وشرائع الإسلام"[45]. وقال في موضع آخر:" كمال الايمان في كمال حسن الخلق"[46]، ولتأييد كلام ابن قيم الجوزية يقول ابن عباس (رضي الله عنه):" لكل بنيان أساس، وأساس الإسلام حسن الخلق"[47].

وبعد أن ذكرنا طائفة من أقوال النبي (صلى الله عليه وسلم) حول حسن الخلق، نذكر الآن بعض مواقف النبي (صلى الله عليه وسلم) وسلوكياته وتصرفاته، أو بعبارة أدق تعامله مع أصحابه، وسأكتفي بما قاله أنس بن مالك (رضي الله عنه)، ولو أردنا الحديث عن ذلك مفصلا لاحتجنا إلى مجلدات ضخام، وكفانا مؤنة ذلك الأعلام السابقون، فكتب السيرة طافحة بالأمثلة والنماذج حول تعامل النبي (صلى الله عليه وسلم) السليم والصحيح مع أصحابه: ومن الأمثلة قول أنس (رضي الله عنه):" خدمت النبي صلى الله عليه وسلم عشر سنين فما قال لي أف قط، أو قال ولا قال لشيء قط صنعته لم صنعته؟ ولا قال لشيء تركته لم تركته؟ وكان أحسن الناس خلقا صلى الله عليه وسلم، فما أعلم عاب شيئا قط"[48].

والذي نلاحظه في شخصية النبي (صلى الله عليه وسلم) أنه جمع بين أمرين، وألف بين صفتين، وهما تقوى الله وحسن الخلق، فلم يكن ليطغى جانب على آخر، بل الذي أفهمه وأعتقده أن الجمع بين ذينك الأمرين أو تينك الصفتين من تمام الإسلام، بل لا يكتمل إسلام المرء دون تحقيقهما، وهما كما شبهتهما بجناحي الطير، ولذلك نجد رسول الله أتقى الناس وأخشاهم لربه، بل لو تتبعنا حياته التعبدية لتجلى لنا ذلك، قال (صلى الله عليه وسلم)" أما والله إني لأخشاكم لله، وأتقاكم له"[49].

ولعل من الأهمية بمكان أن نشير إلى قصتين مشهورتين توضحان حقيقة هذه المسألة، فالأولى قصة المرأة التي دخلت الجنة بسبب كلب، قال (صلى الله عليه وسلم):" غفر لامرأة مومسة مرت بكلب على رأس ركي يلهث كاد يقتله العطش، فنزعت خفها فأوثقته بخمارها فنزعت له من الماء فغفر لها بذلك"[50]، والقصة الأخرى قصة المرأة التي دخلت النار بسبب هرة، قال (صلى الله عليه وسلم):" عذبت امرأة في هرة، سجنتها حتى ماتت، فدخلت فيها النار، لا هي أطعمتها وسقتها، إذ حبستها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش[51] الأرض"[52]. فهاتان القصتان تشيران إلى حقيقة واضحة، وهي أهمية حسن الخلق، وخطورة سوء الخلق، فالقصة الأولى

---

[45] ابن القيم: مدارج السالكين 226/2.

[46] ابن القيم: الزهد والورع والعبادة ص57.

[47] الغزالي: إحياء علوم الدين 52/3.

[48] الألباني: ظلال الجنة في تخريج السنة لابن أبي عاصم (بيروت، المكتب الإسلامي، ط3، 1413، 1993م) 155/1- 156.

[49] الألباني: صحيح الترغيب والترهيب (الرياض، مكتبة المعارف، د.ط.ت)193/2.

[50] الألباني: صحيح الجامع الصغير 380/1.

[51] خشاش الأرض : هي الحشرات والهوام.

[52] الألباني: سلسلة الأحاديث الصحيحة 1 / 34.

تتحدث عن امرأة فاجرة فاسقة غير متدينة، لكنها بحسن تعاملها مع الكلب، حيث أنقذت الكلب الذي كاد يقتله العطش، دخلت الجنة، والقصة الثانية تتحدث عن امرأة ليست فاجرة ولا فاسقة وإنما هي امرأة عادية سجنت هرة، فكان ذلك سببا في هلاكها ودخولها النار، لأنها لم تحسن التعامل مع الهرة، وهذا العمل السيء يعري صاحبه عن كل خلق رفيع، وينفي كونه محسنا، قال الفضيل بن عياض:" لو أن العبد أحسن الإحسان كله، وكانت له دجاجة فأساء إليها لم يكن من المحسنين"[53].

فحسن الخلق مع الحيوان من أعظم وصايا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ولو أردت أن أذكر نصوصا وأحاديث حول الرفق بالحيوان لخرجنا عن المقصود، فما ذكرناه يكفي، وقد غفر الله لرجل لأبسط خلق تخلق به، وهو أنه كان رجلا سهلا، حيث قال (صلى الله عليه وسلم):" غفر الله لرجل ممن كان قبلكم كان سهلا إذا باع، سهلا إذا اشترى، سهلا إذا اقتضى"[54].

ومن الضروري أن نذكر بعض الآثار والدرر لعلماء السلف، في كونهم جمعوا في مسيرة حياتهم بين تقوى الله (التدين) وبين حسن الخلق، فلم يكن ليطغى جانب على آخر، بل كان الجانبان في مستوى واحد، وذلك حتى لا يضطرب الميزان، ولعل أحدا لا يختلف معنا في كون السلف كانوا غاية الخوف والخشوع والتقوى والورع والذكر، فلقد ألف العلماء رسائل ومؤلفات عديدة تتحدث عن أحوال السلف من خوف وصلاة وقيام وصدقة وتلاوة وذكر وتهجد، وخاصة الكتب المتعلقة بالتصوف، بل ربما نجد أكثر الكتب ركزت على هذا الجانب، دون التركيز نفسه على الجانب الخلقي، وليس يعني ذلك أن الجانب الخلقي لا أهمية له، بل ربما لأنه من الأمور البديهية، وأحيانا يتطرقون إليها كجزء متصل بأصل الموضوع، ولعلني أذكر أقوالا ودررا كثيرة للسلف لسبب وجيه، وهو حتى لا يقولن قائل إن ما ذكرته وتذكره عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه عمل شاق، وحالة خاصة برسول الله (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه، وهذا ليس صحيحا البتة، فقد كان السلف يقتفون سنة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في كلا الجانبين أعني في مسألة التقوى (التدين)، حسن التعامل مع رب العالمين، وفي مسألة الخلق الحسن أي حسن التعامل مع الناس، كان السلف دائما يحاولون الجمع بين الأمرين، يقول ابن القيم:" جمع النبي صلى الله عليه وسلم بين تقوى الله وحسن الخلق, لأن تقوى الله تصلح ما بين العبد وبين ربه، وحسن الخلق يصلح ما بينه وبين خلقه، فتقوى الله توجب له محبة الله، وحسن الخلق يدعو الناس إلى محبته"[55].

من درر علماء السلف حول حسن الخلق

---

[53] القشيري: الرسالة القشيرية ص230.

[54] الألباني: سلسلة الأحاديث الصحيحة 255/3.

[55] ابن القيم: بدائع الفوائد، خرج أحاديثه: أحمد بن شعبان بن أحمد (القاهرة، مكتبة الصفا، د.ط.2005) 72/2.

- يقول مالك بن أنس:" إن العبد ليبلغ بحسن خلقه أعلى درجة في الجنة وهو غير عابد، ويبلغ بسوء خلقه أسفل درك في جهنم وهو عابد"[56].
- سأل رجل سفيان الثوري عن فضل الصف الأول، فقال:" أنظر كسرتك التي تأكلها، من أين تأكلها، وقم في الصف الأخير"[57].
- وقال وهب ابن منبه مثل السيء الخلق كمثل الفخارة المكسورة، لا ترقع ولا تعاد طينا"[58].
- وقال الفضيل بن عياض:" لأن يصحبني فاجر حسن الخلق، أحب إلي من أن يصحبني عابد سيء الخلق"[59].
- :" وصحب ابن المبارك رجلا سيء الخلق في سفر، فكان يحتمل منه، ويداريه، فلما فارقه، بكى، فقيل له في ذلك، فقال: بكيته رحمة له، فارقته وخلقه معه لم يفارقه"[60].
- وقال الجنيد:" أربع ترفع العبد إلى أعلى الدرجات، وإن قل عمله وعلمه، الحلم والتواضع والسخاء وحسن الخلق وهو كمال الإيمان"[61].
- وقال يحيى بن معاذ الرازي:" سوء الخلق سيئة لا تنفع معها كثرة الحسنات، وحسن الخلق حسنة لا تضر معها كثرة السيئات"[62].
- قال أبو حاتم:" الواجب على العاقل أن يتحبب الى الناس بلزوم حسن الخلق، وترك سوء الخلق، لأن الخلق الحسن يذيب الخطايا كما تذيب الشمس الجليد، وإن الخلق السيء ليفسد العمل كما يفسد الخل العسل"[63].
- وقال عطاء:" ما ارتفع من ارتفع إلا بالخلق الحسن، ولم ينل أحد كماله إلا المصطفى صلى الله عليه و سلم فأقرب الخلق إلى الله عز و جل السالكون آثاره بحسن الخلق"[64].

---

[56] الغزالي: إحياء علوم الدين52/3.

[57] البيهقي: شعب الإيمان، حققه وراجع نصوصه وخرج أحاديثه: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد
الرياض، مكتبة الرشد ط1، 1423 هـ - 2003 م) 61/5.

[58] الغزالي: إحياء علوم الدين 52/3.

[59] المصدر السابق 52/3. وقد ردد هذا القول الجنيد:" لأن يصحبني فاسق حسن الخلق، أحب إلي من أن يصحبني قاريء سيء الخلق". انظر: الغزالي: إحياء علوم الدين 172/2.

[60] المصدر السابق 52/3.

[61] المصدر السابق 52/3.

[62] المصدر السابق 52/3.

[63] ابن حبان: روضة العقلاء ونزهة الفضلاء(د.م. مكتبة شبكة بدر، د.م.ت.ط) ص43. وقد نسب هذا القول إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، لكنه لم يصح عنه، وقد حكم الألباني على الحديث بأنه ضعيف جدا، انظر: الألباني: سلسلة الأحاديث الضعيفة635/1.

[64] الغزالي: إحياء علوم الدين 52/3.

لا جرم أن المسألة هذه أعني الجمع بين تقوى الله (التدين)، وحسن الخلق من الأساسيات، ومشكلة مجتمعاتنا أنها تعاني من هذا الفصام الخطير، فقل من تلفي جمع بين التدين الصحيح والخلق الحسن، فأكثر الناس متدينون، ولا يعيرون اهتماما بالقضايا الأخلاقية، مع خطورتها وأهميتها وضرورتها، بل لا يصح إيمان أحد، ولا يقبل إسلام أحد إذا لم يهتم بالأخلاق الحسنة قدر اهتمامه بالتقوى والتدين، فالله تبارك وتعالى قد جمع في أكثر الآيات بين التقوى وحسن الخلق، قال تعالى{ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ}[65].قال القرطبي مفسرا للآية:" وقد اشتملت هذه الآية على جميع مصالح العباد، في معاشهم ومعادهم، فيما بينهم بعضهم بعضا، وفيما بينهم وبين ربهم، فان كل عبد لاينفك عن هاتين الحالتين وهذين الواجبين : واجب بينه وبين الله، وواجب بينه وبين الخلق"[66]. هذا الكلام يوضح حقيقة ما ذكرناه سابقا، في كون الإنسان لا يمكن أن يستغني عن تينك الحالتين، أي الجمع بين البر والتقوى، أما الأحاديث النبوية فحدث ولا حرج، وقد ذكرنا طائفة منها، وهي كافية شافية، جامعة مانعة، في ضرورة الجمع بين الأمرين، وعلى هذا مضى السلف الصالح، ومن تبعهم من الخلف، وقد ذكرنا دررا من أقوالهم، وهي تنبيء عن حقيقة هذا الذي ندندن حوله، ولعل خير حديث يوضح هذه الإشكالية من الناحية العملية ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه، حيث قال: قال رجل يا رسول الله: إن فلانة يذكر من كثرة صلاتها وصدقتها وصيامها، غير أنها تؤذي جيرانها بلسانها، قال: هي في النار، قال يا رسول الله: فإن فلانة يذكر من قلة صيامها وصلاتها، وأنها تتصدق بالأثوار من الأقط، ولا تؤذي جيرانها، قال: هي في الجنة)[67]. ففي هذا الحديث يتضح لنا أن الإخلال بأحد الأمرين يهوي بصاحبه في النار، فالمرأة الأولى التي كانت تقية متدينة، حيث كثرة الصلاة والصيام والصدقة، لكن ذلك لم ينفعها لأنها لم تحقق الشرط الثاني، وهو حسن الخلق، وفي جزئية واحدة من منظومة حسن الخلق، وهذه الجزئية هي لسانها، حيث كانت تؤذي جيرانها بلسانها، بينا المرأة الثانية على العكس، لم تكن شديدة التقوى ولا متدينة جدا كأختها، بل كانت قليلة الصلوات أي السنن، وقليلة الصيام أي السنن، وقليلة الصدقة حيث كانت تتصدق ما تملك مما رزقها الله وهي الأقط، لكنها حققت شرطا مهما آخر وهو حسن الخلق مع الخلق، وهنا حسن المعاملة مع جيرانها، فدخلت الجنة، وهذا أن دل علي شيء فإنما يدل على غفلة مجتمعاتنا المسلمة عن من هذا الأمر الخطير، فلذلك تجد أحدهم لا يلقي بالا بهذه الأمور، ويحسبها شيئا هينا، وهو عند الله عظيم، ولهذا قال (صلى الله عليه وسلم) لأبي ذر الغفاري(رضي الله عنه):" اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن "[68]. هنا وصى رسول الله (صلى الله عليه

---

[65] سورة المائدة الآية 2.

[66] القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، تحقيق عبد الرزاق المهدي (بيروت، دار الكتاب العربي، 1429هـ، 2008م) 6/1.

[67] الألباني: صحيح الترغيب والترهيب رقم الحديث 2560.

[68] الألباني: صحيح الترغيب والترهيب 8/3.

وسلم) أبا ذر بالجمع بين أمرين: تقوى الله وحسن الخلق، أي حسن الخلق مع الخالق، وحسن الخلق مع الخلق.

ومن الأحاديث التي تؤكد هذه الحقيقة قوله (صلى الله عليه وسلم):" إذا أتاكم من ترضون خلقه ودينه فزوجوه، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض"[69]، نجد في هذا الحديث الصريح أن النبي (صلى الله عليه وسلم) أوصى الوالدين باختيار الرجل المناسب لبناتهم، بحيث يتحقق فيه شرطان أساسيان، وهما التدين وحسن الخلق، ولا يمكن أن يكون الاختيار صحيحا ومقبولا وسليما إذا اختل واحد منهما، فكل من تحقق فيه الشرطان السابقان، فهو أجدر بالقبول، وهو أولى الناس، وإلا تحول الأمر إلى فتنة وفساد، وقد حصل ذلك كله، والأمثلة عديدة لا مجال لذكرها.

هنا يطرح سؤال نفسه، أي الصنفين أفضل، أو بعبارة أخرى، من الأفضل، هل التقي العابد وهو ذو خلق سيء أم صاحب الخلق الحسن وهو فاجر غير عابد ولا تقي ؟ والجواب أن هذا التفاضل وهذه المقارنة يمكن قبولها حسب الجهة المقصودة، فعند التعامل مع الناس أو عند المعاملة مع الخلق تتجلى أفضلية صاحب الخلق الحسن وهو فاجر غير عابد ولا تقي على العابد التقي ذي الخلق السيء، لأن الأول يتعامل مع الناس في كل أحواله، بينا الثاني يتعامل مع ربه، وقد أصلح ما بينه وبين ربه، من غير أن يصلح ما بينه وبين الناس، مع أن التدين الصحيح هو أن تصلح ما بينك وبين ربك، وبينك وبين الناس، اقتفاء برسول الله (صلى الله عليه وسلم)، يقول ابن حزم الأندلسي:" من أراد خير الآخرة، وحكمة الدنيا، وعدل السيرة، والاحتواء على محاسن الأخلاق كلها، واستحقاق الفضائل بأسرها، فليقتد بمحمد (صلى الله عليه وسلم)، وليستعمل أخلاقه وسيره ما أمكنه"[70]. ثم إن التدين أمر شخصاني سري لا يمكن ولا يجوز أن يظهر شيء من تدينه للناس، بل لا بد أن يخفيه عن الناس، لأن التقوى لله، والله يحب العبد التقي الخفي، ويحب السر في الأعمال، بأن تكون خالصة له، لا مراء فيها ولا رياء، ومتى دخل الرياء في عمل العبد صار باطلا مشوبا، بينا الأخلاق الحسنة هي للناس، فلا بد أن تظهر وتتجلى للناس، بحيث تعبر عن حقيقة النفس الإنسانية الطيبة النقية، التي لا تحمل حقدا على أحد، ألم يبشر النبي (صلى الله عليه وسلم) تلك المرأة بالجنة، لا بكثير صلاة ولا صيام ولا صدقة ولا ذكر ولا قراءة قرآن، ولكن لشيء واحد يتعلق بخلقها الرضي، وهو أنها لم تؤذ أحدا بلسانها، بينا المرأة الثانية، بشرها بالنار مع كونها كانت كثير الصلاة والصوم والعبادة والصدقة، لكونها كانت تؤذي الناس بلسانها، فهنا فضل رسول الله إمرأة حسنة الخلق وهي غير عابدة ولا تقية، على إمرأة تقية عابدة سيئة الخلق، لأن الناس في الدنيا بأمس الحاجة إلى التعامل الطيب والمعاملة الحسنة، من قبل أناس يحملون قلوبا صافية، ونفوسا نقية، وأخلاقا حميدة، وسلوكا جميلا، فأمثال هؤلاء هم الذين يجلبون للناس السعادة والراحة والطمأنينة والسكينة، ويتحول المجتمع بهم إلى مجتمع مسالم هادىء مطمئن، قال (صلى الله عليه وسلم):" " ألا أخبركم بالمؤمن ؟ من أمنه الناس

---

[69] الألباني: سلسلة الأحاديث الصحيحة 20/3.

[70] ابن حزم الأندلسي: الأخلاق والسير في مداواة النفوس (بيروت، دار الآفاق الجديدة، ط2، 1399هـ، 1979م) ص24.

على أموالهم و أنفسهم، والمسلم من سلم الناس من لسانه و يده"[71]. وبهذا المجتمع يتحول البلد إلى بلد طيب مطمئن، بحيث كل واحد يعمل على شاكلته، ولا يتدخل أحد في شأن غيره، حر في حياته، مطمئن في بيته، له رزقه وعمله، وهذا ما أراده لنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بقوله:" من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه"[72]، أما الإنسان المتدين السيء الخلق فلا أحد يحبه، ولا أحد يرضى بصداقته، بل هو إنسان معقد في عزلة وزاوية صنعها لنفسه، غارق في حجرته، مشاكس مع نفسه، قيل لذي النون المصري: من أكثر الناس هما، قال: أسوأهم خلقا"[73]، ومما قيل:" أن الخلق السيء يضيق قلب صاحبه، لأنه لا يسع فيه غير مراده، كالمكان الضيق لا يسع فيه غير صاحبه"[74]. ولنضرب مثلا، إن الإنسان بطبيعته يحب الإنسان السخي الكريم الجواد حتى ولو كان فاجرا فاسقا غير ملتزم بالدين، بينا يكره الإنسان التقي العابد الملتزم عندما يكون بخيلا شحيحا، ومصداق ذلك قول يحيى بن معاذ الرازي حيث يقول:" ما في القلب للأسخياء إلا حب ولو كانوا فجارا، وللبخلاء إلا بغض ولو كانوا أبرارا"[75]، :" فالخلق الحسن أفضل مناقب العبد، وبه يظهر جواهر الرجال، والإنسان مستور بخلقه، مشهود بخلقه"[76].

وحتى في مسألة تحقيق المقاصد العامة للأنام، وجلب المصالح لهم، نجد أن الإسلام قدم الحاكم الكافر العادل على الحاكم المسلم الظالم، وذلك لأن مصالح الناس ستتحقق في ظل الحاكم الكافر العادل، دون الحاكم المسلم الظالم، ولعل القاريء اللبيب يتفق معي في هذا، وخاصة أن التاريخ المعاصر مكتظ بالأمثلة الحقيقية، فلقد كان كل من صدام حسين والقذافي وزين العابدين وحسني مبارك حكاما مسلمين، لكنهم كانوا ظالمين جائرين، لم تتحقق مصالح الناس في ظل حكمهم، ونجد عكس ذلك في الدول الأوربية، حيث نجد حكامها كافرين لكنهم عادلون، وقد حققوا مصالح الناس، ولذلك نجد الجم الغفير من المسلمين يفرون من سلطة الحاكم المسلم الظالم، إلى رحمة الحاكم الكافر العادل في أوربا، وعندما نقارن بين حياة الناس في ظل الحاكم المسلم الظالم وبين حياة الناس في ظل الحاكم الكافر العادل، نجد الأولى قطعة من العذاب، وحفرة من النيران، وجحيما لا يطاق، حيث التخلف والتقهقر والفقر والفوضى والغش والخداع والسجن والتعذيب والإهانة والقتل وهضم حقوق الإنسان وكرامته وتجاوز القانون وغياب العدل، وهلم جرا، بينا في ظل الحاكم الكافر العادل نجد الحياة الرغيدة والسعادة والاستقرار والقانون والعدل وما إلى ذلك، فكون الحاكم مسلما لا يقتضي كون حكمه عادلا، فالهوية وحدها غير كافية إن لم يكن صاحبها عادلا مع شعبه، وكون الحاكم كافرا لا يقتضي أن يكون حكمه ظالما وجائرا، فهذه المسألة تتعلق بأخلاقيات الحاكم، وبالنظام الذي وضعه الشعب لأنفسهم، حتى لا

---

[71] الألباني: سلسلة الأحاديث الصحيحة 48/2

[72] صحيح الجامع الصغير 31/2.

[73] القشيري: الرسالة القشيرية ص230.

[74] المصدر السابق ص233.

[75] الغزالي: إحياء علوم الدين 256/3.

[76] القشيري: الرسالة القشيرية ص229.

يتجرأ أحد على خرق القانون، وتجاوز أخلاقيات النظام الاجتماعي والسياسي العادل، يتصور أحدنا أن مجرد رؤية (الله أكبر) أو (لا إله إلا الله) على العلم الوطني، أو مجرد إضافة كلمة (الإسلامية) على اسم الدولة يكفي لإسعاد الناس، كم من الأبرياء قتلوا تحت هذه الراية، وكم من الناس عذبوا تحت هذه الراية وباسم هذا الدين، إن الرايات والأعلام لا تجلب للناس السعادة، بل النظام والعدالة والعمل الحقيقي هو الذي يجلب للناس السعادة والطمأنينة، بل لقد كانت هذه الرايات ولا تفتأ أحابيل لاستغفال الناس، وخداعهم من أجل تحقيق مصالح شخصية وسياسية ضحلة ضيقة، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية الحراني:" إن العدل نظام كل شئ، فاذا أقيم أمر الدنيا بعدل قامت، وإن لم يكن لصاحبها فى الآخرة من خلاق، ومتى لم تقم بعدل لم تقم، وان كان لصاحبها من الإيمان ما يجزى به في الآخرة"[77]. وقال في موضع آخر:" فإن الناس لم يتنازعوا في أن عاقبة الظلم وخيمة، وعاقبة العدل كريمة، ولهذا يروى: الله ينصر الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا ينصر الدولة الظالمة وإن كانت مؤمنة"[78].

عندما نقارن على سبيل المثال بين العراق(الدولة الغنية بمواردها الطبيعية) وبين سويسرا[79]، نجد أن العراق دولة يحكمها مسلمون، وقد رفعوا راية (الله أكبر) على العلم العراقي، بينما سويسرا دولة يحكمها غير المسلمين، ونجد على العلم السويسري(الصليب)، ترى أي الشعبين يعيش حياة رغيدة طيبة هانئة سعيدة مستقرة، الكل يعلم أن الشعب العراقي يعيش في جحيم لا يطاق، حيث الدمار والفساد والتخلف والفوضى، لا يتحدثن أحد عن الحرب، لأن السؤال الذي يطرح نفسه، من الذي صنع هذه الحروب التافهة، ومن الذي كان سببا لجلب هذه المآسي إلى الشعب العراقي، ثم لم لا نتحدث عن العراق قبل الحروب، فهذا البلد سيظل هكذا، ما لم يحكمه شخص يؤمن بالوحدة الوطنية الحقيقة، ويعتقد بالدولة المدنية، ويطبق الديموقراطية الحقيقية، بحيث يكون الكل أمام القانون مساويا، ويطبق القانون على كل فرد من أفراده، فالشعارات الدينية لا تجلب للناس السعادة، بل هي شعارات لخداع الناس واستغفالهم واستغلالهم، فلو أن أحدهم كتب القرآن الكريم من أوله إلى آخره على صدره أو بدمه كما قام به صدام حسين، فهذا لا يحوله إلى حاكم عادل، بل سيبقى ظالما إن لم يكن ملتزما بمباديء العدالة، لأنه قد يجتمع الظلم والإسلام، والتدين والجور، فالظلم خلق سيء، قد يجتمع مع التدين المتزمت والمتشدد، ولو أن أحدهم جعل فوق كل بيت مسيحي صليبا، فهذا لا يحوله إلى ظالم، ولا ينفي عنه كونه عادلا، إن حقق مباديء العدالة، فالعدالة خلق حسن، قد يجتمع مع الكفر، وقد يجتمع العدل والكفر.

---

[77] ابن تيمية الحراني: مجموع فتاوى شيخ الإسلام 146/28.

[78] المصدر السابق 63/28.

[79] قمت بالمقارنة لأن صاحب هذه الأسطر زار هذا البلد الرائع (سويسرا) بجماله وتطوره ونظافته ودقته، فالشعب السويسرى من أسعد الشعوب، بل كثير من المسلمين قرروا العيش في هذا البلد الجميل الآمن المستقر، فرارا من بلدانهم التي تعاني من الفوضى والاستبداد وضياع حقوق الإنسان وغياب القانون والعدالة.

هذا ما يتعلق بالحاكم المسلم الظالم الجائر والحاكم الكافر العادل، وفيما يخص المقارنة والأفضلية بين الحاكم القوي الفاجر والحاكم الضعيف التقي نجد أن الإسلام قدم الأول على الثاني، سئل الإمام أحمد بن حنبل: عن الرجلين يكونان أميرين في الغزو، وأحدهما قوي فاجر والآخر صالح ضعيف، مع أيهما يغزى، فقال: أما الفاجر القوي، فقوته للمسلمين، وفجوره على نفسه، وأما الصالح الضعيف فصلاحه لنفسه، وضعفه على المسلمين، فيغزى مع القوي الفاجر، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم:" إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر" وروي:" بأقوام لا خلاق لهم"[80]، وإن لم يكن فاجراً ، كان أولى بإمارة الحرب ممن هو أصلح منه في الدين إذا لم يسد مسده، ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يستعمل خالد بن الوليد على الحرب منذ أسلم، وقال:" إن خالداً سيف سد الله على المشركين"[81]، مع أنه أحيانا قد كان يعمل ما ينكره النبي ، صلى الله عليه وسلم، حتى إنه - مرة - قام ثم رفع يديه إلى السماء وقال:" اللهم إني أبرأ إليك مما فعل خالد"[82]، ومع هذا فما زال يقدمه في إمارة الحرب، لأنه كان أصلح في هذا الباب من غيره، وكان أبو ذر (رضي الله عنه) أصلح منه في الأمانة والصدق، ومع هذا قال له النبي صلى الله عليه وسلم:" يا أبا ذر إني أراك ضعيفاً، وإني أحب لك ما أحب لنفسي:" لا تأمرن على اثنين، ولا تولين مال يتيم"[83]، نهى أبا ذر عن الإمارة والولاية ، لأنه رآه ضعيفاً مع أنه قد روي[84]:" ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء أصدق لهجة من أبي ذر"[85].

والذي أريد أن أصل إليه أن ما يتعلق بمصالح الناس، وما له صلة بكيفية التعامل مع الناس، لا ريب أن الشخص الذي يسعد الناس به، لكونه نافعا وصاحب خلق رفيع، هو أولى في الدنيا من الذي لا نفع فيه، وله خلق سيء يفر الناس من سوء معاملته وخلقه وسلوكه، فالمؤمن الحقيقي كالنحلة أينما وقعت نفعت[86]، وخير الناس من نفع الناس كمال قال (صلى الله عليه وسلم)، حيث يقول:" خير الناس من نفع الناس[87]، وفي رواية ": أحب الناس إلى الله تعالى أنفعهم للناس"[88].

---

[80] الألباني: سلسلة الأحاديث الصحيحة 393/2.

[81] الألباني: سلسلة الأحاديث الصحيحة 311/3.

[82] رواه البخاري باب بعث النبي (صلى الله ليه وسلم) رقم الحديث 3994. قاله (صلى الله عليه وسلم) عندما قتل خالد بن الوليد امرأة في الحرب.

[83] الألباني: صحيح الجامع الصغير 172/2.

[84] المصدر السابق 496/1.

[85] ابن تيمية الحراني: السياسة الشرعية (السعودية، وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، ط1، 1418هـ). ص9-10.

[86] قال (صلى الله عليه وسلم):" المؤمن كالنحلة ، وقعت فلم تفسد و أكلت فلم تكسر و وضعت طيبا " انظر: سلسة الأحاديث الصحيحة 287/5.

[87] رواه البيهقي في شعب الإيمان رقم الحديث 7658. وفي رواية خير الناس أنفعهم للناس، وقد حسنه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة 1 / 712 :

[88] الألباني: سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم الحديث 906.

وعليه، فإن التدين والخلق ككفتي الميزان، فلا يمكن للميزان أن يكون عادلا وسليما وصحيحا إلا إذا كانت الكفتان متساويتين، وإلا أصبح الميزان مختلا، فيه تطفيف، وعندما نلاحظ متدينا سيء الخلق، فهذا يعني أن هذا الشخص يعاني من اختلال في الداخل، أو بعبارة أخرى من اضطراب في النفس، وقد تحدث الماوردي بتفصيل عن أسباب هذه الظاهرة، قائلا:" وربما تغير حسن الخلق والوطاء إلى الشراسة والبذاء لأسباب عارضة، وأمور طارئة، تجعل اللين خشونة، والوطاء غلظة، والطلاقة عبوسا... ثم ذكر أسباب ذلك وهي سبعة عنده: نذكرها بإيجاز: الولاية والعزل والغنى والفقر والمرض والهموم والهرم"[89]. فكلما اشتد تدين الإنسان لا بد أن يرتفع مستوى حسن الخلق عنده، وإلا أخذ أحدهما من الآخر حصته، فعندما يشتد الجانب التديني دون ارتقاء الجانب الآخر وهو الخلقي، تحول هذا الإنسان إلى شخص مشاكس عبوس فظ غليظ جاف قاس مشاغب غير مقبول في المجتمع من الناحية التعاملية، لأن ميزانه مضطرب، فاضطرب كله، والغريب أن بعض المتدينين حصروا التدين في مظاهر محددة، وأشكال معينة، وصفات معينة، وهي كلها تنافي طبيعة التدين الصحيح، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: " يكن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم متحزقين[90]، ولا متماوتين[91]، وكانوا يتناشدون الشعر في مجالسهم، ويذكرون أمر جاهليتهم، فإذا أريد أحد منهم على شيء من أمر الله، دارت حماليق عينيه كأنه مجنون"[92]. ولقد نهى النبي(صلى الله عليه وسلم) عن الغلو والتشدد والتنطع، حيث قال:" إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه"[93] ثم حذرنا بقوله:" إياكم والغلو في الدين، فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين"[94] ثم بين النبي (صلى الله عليه وسلم) آثار هذا التشدد والتشديد على النفس قائلا وهو يتحدث عن السابقين:" لا تشددوا على أنفسكم، فإنما هلك من قبلكم بتشديدهم على أنفسهم، وستجدون بقاياهم في الصوامع والديارات"[95]، ثم حذر أمته مرارا وتكرارا من التنطع والمتنطعين، قائلا:" هلك المتنطعون" قالها ثلاثا[96]، والمتنطعون كما يقول النووي هم :"المتعمقون الغالون المجاوزون الحدود في أقوالهم وأفعالهم"[97]. هذه هي حقيقة حياة الصحابة (رضي الله عنهم)، حيث البساطة والبشاشة والهشاشة وعدم

---

[89] الماوردي: أدب الدنيا والدين ص 368-372.

[90] أي متقبضين ومجتمعين.

[91] تماوت الرجل، إذا أظهر من نفسه، التخافت والتضاعف، من العبادة والزهد والصوم.

[92] صحيح الأدب المفرد 219/1.

[93] الألباني: سلسلة الأحاديث الصحيحة235/3.

[94] المصدر السابق 357/3.

[95] المصدر السابق 14/10.

[96] رواه مسلم في صحيحه رقم الحديث 6955 باب هلك المتنطعون.

[97] النووي: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج(بيروت، دار إحياء التراث العربيط2، 1392هـ)

220/16

التكلف والتنطع والتشدد، ولولا ذلك لأصبحت الحياة قطعة من العذاب، وحفرة من التعاسة والشقاء، فلا يمكن للإنسان أن يكون دوما على حالة واحدة، حيث الخوف والتقوى والعبادة والخشوع، بل لا بد للإنسان أن يقسم أوقاته، جزء للدين (العبادة)، وجزء للدنيا، ولعل في قصة حنظلة الجواب السديد لما نحن بصدده، فعن حنظلة بن الربيع الأسيدي قال : لقيني أبو بكر فقال: كيف أنت يا حنظلة ؟ قلت: نافق حنظلة، قال: سبحان الله ما تقول؟ قلت: نكون عند رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يذكرنا بالنار والجنة، كأنا رأي عين، فإذا خرجنا من عند رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات نسينا كثيرا، قال أبو بكر: فوالله إنا لنلقى مثل هذا، فانطلقت أنا وأبو بكر حتى دخلنا على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقلت: نافق حنظلة يا رسول الله، قال رسول الله(صلى الله عليه وسلم): " وما ذاك؟ " قلت: يا رسول الله نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة كأنا رأي عين، فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات نسينا كثيرا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الذي نفسي بيده لو تدومون على ما تكونون عندي وفي الذكر، لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم، ولكن يا حنظلة: ساعة وساعة ثلاث مرات"[98].

وقد رأى عمر بن الخطاب (رضي الله عنه):" رجلا مطأطئا رأسه، فقال: ارفع رأسك، فإن الاسلام ليس بمريض"[99]، ورأى (رضي الله عنه):" رجلا متماوتا، فقال: " لا تمت علينا ديننا، أماتك الله "، ونظرت عائشة (رضي الله عنها)إلى رجل كاد يموت تخافتا، فقالت: ما لهذا ؟ فقيل: إنه من القراء، فقالت: كان عمر سيد القراء، كان إذا مشى أسرع، وإذا قال أسمع، وإذا ضرب أوجع "[100]. ولهذا قال (صلى الله عليه وسلم):" إن الله لا ينظر إلى أجسامكم، ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم - وأشار بأصابعه إلى صدره- وأعمالكم"[101].

وعندما يكون الإنسان ذا خلق عظيم، ولا تدين له، أو نقول إنسان فاجر فاسق ذو خلق رفيع، فهذا الإنسان أيضا مشاغب مشاكس ومضطرب غير مقبول عند رب العالمين، وهذه مشكلته هو، بينه وبين ربه، يحاسبه الله يوم القيامة على طيشه وتمرده على ربه، وهو مقبول اجتماعيا من قبل الناس من الناحية المعاملاتية اليومية، فقد يكون فاجرا لكنه سخي بشوش لين هين سهل بسيط، فهذا لا يمنع الناس من محبتهم له، لأخلاقه الرضية، أما فسقه وفجوره فله، وذاك بينه وبين ربه، وهذا لا يعني أن لا نأمره بمعروف ولا ننهاه عن منكر، ولكننا نتحدث عن فلسفة المعاملة مع هذه الأصناف المتباينة، ولهذا اتهم المتدين بكونه متشددا متزمتا عبوسا شديدا قاسيا لا يضحك ولا يبتسم ولا يتبشبش، مع أن المتدين الحقيقي بخلاف ذلك كله، فرسول الله (صلى الله عليه وسلم) كان بخلاف ذلك كله، ولقد ذكرنا من أخلاقه ما يكفي، ليكون دليلا قاطعا في خطأ من يسلك هذا السبيل الأعوج في حياته.

---

[98] الألباني: سلسلة الأحاديث الصحيحة 592/4.

[99] صحيح الأدب المفرد 219/1.

[100] ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر تحقيق: طاهر أحمد الزاوى، محمود محمد الطناحي (بيروت، المكتبة العلمية، 1399هـ، 1979م) 809/4.

[101] صحيح الترغيب والترهيب 4/1.